الموتُ كما لو كان خُردة

وداد نبي

أموتُ كما لو كان خُردة

سلسلة شهادات سورية -20- الموتُ كما لو كان خُردة
وداد نبي

الإخراج الفني: فايز علام
لوحة الغلاف: الشاعر منذر المصري
تصميم الغلاف: فادي العساف

الطبعة الأولى ـ 2016

ISBN: 978-9953-583-77-8

تمت طباعة هذا الكتاب بمساعدة من جمعية
«مبادرة من أجل سورية جديدة» - باريس

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر ومقدماً.

الناشر:
بيت المواطن للنشر والتوزيع
دمشق ـ الجمهورية العربية السورية
هاتف: 78840213 961+
بريد إلكتروني:
baitelmouwaten@gmail.com

التوزيع:
أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي
شارع الحمرا ـ بناء رسامني
ص.ب: 6435 / 113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 750054 1 961+
فاكس: 750053 1 961+
بريد إلكتروني:
atlasbooks@gmail.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن آراء الناشر.

إلى جيفارا «مالفا» نبي:

«حتى خرابها الأخير»!

رسائل:
اثنا عَشرَ غزالاً قنصَهم الحزن

– 1 –

لمْ يكنْ للحزنِ بيتٌ
فاستقبلْناهُ بحفاوةٍ في بيوتِنا
كفردٍ منَ العائلة

– 2 –

في الحديقةِ الخلفيّةِ
حيثُ لا ضوءَ
حيثُ لا أحدَ هناك
أزهارٌ رقيقةٌ لم يُشاهدها أحد.

– 3 –

المطرُ يهطلُ، ولا أحدَ يُصغي لهُ
الإصغاءُ.. مهنةُ القلبِ الأعمى.

– 4 –

اِحملْ حزنَكَ بقرنِ غزالٍ

فلا زهورَ في برّادِ الموتى.

– 5 –

البلادُ التي منحَتنا أسماءً كئيبة

وأمّهاتٍ قلقات

ونشيداً وطنيّاً يُمجّدُ القاتل

بعدَ ربعِ قرنٍ وحرب

هل ستمنحُ توابيتَنا تصريحات عبور؟!

– 6 –

حتّى الحبُّ يموتُ

كأيِّ دودةٍ صغيرةٍ تحتَ الأرض.

– 7 –

الماءُ

وحدَهُ من يعرفُ

سببَ بكاءِ الزهور

في شُرفاتِ المنازلِ السعيدة.

– 8 –

أطلقَ عليَّ أبي أسماءً كثيرة
أسماءً تصلحُ لكلِّ المناسبات
إلّا أنّه نسيَ دائماً
كيفَ يُرشدُ السعادةَ
إلى بيتِنا.

– 9 –

حملتُ حقائِبي مِراراً، لم يعُدِ الأمرُ مُخيفاً أيّتُها البلاد.

– 10 –

أحبُّها تلكَ البلاد
حتّى في خرابِها الأخير.

– 11 –

لا بُدَّ من أسىً ما
ليُضيءَ بيتَ الشاعرِ في عالمٍ أعمى.

– 12 –

أزهارُ الصبّارِ
تنمو في أحواضِ المُدنِ
التي هجرناها..

المكانُ مُضاءٌ بالذكرى

– 1 –

الأسى

هو أن تزورَ أنقاضَ بيتكَ في الحلم

وتعودَ منهُ وقد علق الغبارُ على يديك.

– 2 –

الرِّقّة

هي أن تسقي الأزهار الذابلة

في حديقةِ الجيران

لأنّ زهورَ بيتكَ ماتت جفافاً تحت القصف.

– 3 –

المسافة

جغرافيا قهرٍ

تفصلُ مدينتَين بينهما آلاف الأميال

في الأولى تركتَ ثيابكَ على حبلِ الغسيل

وفي الثانية تمدُّ يدكَ في الهواء
لتلتقط ثيابَك من شرفة الأولى

– 4 –
يَدُكَ العالقةُ على جرسِ بيتكَ القديم
من يُخبرها:
«المنازل ليست لمن رحلوا عنها !»

– 5 –
وحدَهُ الماء
يعرفُ سبب بكاء الزهور
في شرفات المنازل السعيدة
تلك التي هجرناها

– 6 –
في الطريق إلى بيتكَ الجديد
ثمّة شارعٌ طويل للحنين
ستمشي فيه أبداً.

– 7 –
أن تلمسَ حديد الحافلة القاسي هنا
فتنمو نرجسةٌ على المقبضِ الحديدي لبابِ بيتكَ هناكَ
تلك طريقةُ المنازل في الوفاء لأصحابها المُهجّرين.

– 8 –

تستيقظُ كل ليلة من منتصف نومكَ
الصنبور ما يزالُ ينقّطُ في مغسلةِ مطبخكَ القديم.

– 9 –

الحياة لن تكون بهذا السوء
ستمنحكَ بيتاً جديداً
لكنّ روحكَ ستبقى ذئباً
يعوي كل ليلة
على أدراجِ بيتكَ القديم.

– 10 –

وراء النافذة القديمة
صورتُكَ تراقب تساقطَ المطر
شجرة الزان المُبلّلة تبكي
ولا أحد ينتبه لها.

– 11 –

العتمة
تنمو في المنازل المهجورة
كعشبِ نيسان
حيث المكان مُضاء بالذكرى.

طرود لعناوين مختلفة

– 1 –

لم أمنح مفاتيح وحدتي لأحدٍ
يعرفُ الجميع ذلك
بمن فيهم «العشبُ» الذي سينمو
في قفلِ الباب.

– 2 –

هل نجَونا؟!
لا أحد يعرف، فالحرب لا تزالُ مقيمةً هناك في ألبوم صور العائلة.

– 3 –

الطرود البريديّة لرسائلِ الحُبّ لم تعد تُرسل
وحدها طرود البؤس تسقطُ على رأسِ هذا العالم.

– 4 –

بخصلاتِ شعري المتهالكة
ببقايا عظمة الترقوة المنفرطة
بالدهن المُسال من لحمي
بكلّ الحنان الذي في اسمي
أعانق كلَّ ما غادرتُهُ.

– 5 –

المكانُ مُضاء بالذكرى
الذكرى..
عتمةٌ تنمو في حنجرةِ كناريٍّ ميت.

– 6 –

قبل أن يمسخوكَ
قبل أن يطلقوا عليك اسماً
ويحدّدوا لكَ طائفتكَ، معتقدكَ، ديانتكَ،
وخرافاتهم
كنتَ ماءً مالحاً
يختلط مع دمعِ أمكَ.

– 7 –

كنتُ متجراً كبيراً للأشياءِ

وحدَها الكراهية
لم تشترِ منّي شيئاً.

– 8 –

أكبرُ ليلاً
خلسةً من الوقت
دون أن يراني أحد
أكبرُ مئة عام
أُمرِّرُ الحزنَ الذي ينمو تحت جلدي شِعراً
وأبقى كما أنا
صورةَ الغزال الصغير بعينِ النّبع.

لا أحملُ اسملكَ

– 1 –

لا أحملُ اسمكَ
على أوراقي الثبوتيّة
ولا يحملهُ أطفالي في سجلّاتهم المدرسيّة
ولا يدخلُ معي إلى الصحفِ والمجلاتِ التي أكتبُ فيها
ولم يعرف لذّة أن يكون مع اسمي
في مكانٍ واحد.

يرنُّ اسمكَ في أذني
كحلَقٍ ذهبيٍّ من أيامِ الطفولة
اسمكَ
شجرةٌ (أركانه) خضراء
(أركانُه) لا تشيخُ أبداً.

– 2 –

لم أعرفكَ

ليسَ لديَّ فكرةٌ عن لونِكَ المُحبّب

اسمِ المغنّي المفضّل لديكَ

نوعِ الزهور التي تُحبّ

السبب الذي يدفعكَ للبكاء

ورغم ذلك، في هذا العماء الكلّي عنكَ

أستطيعُ أن أُشيرَ إليكَ من بين المليارات على هذه الأرض

فَـ.. قلبُكَ لمسَني ولمستهُ

حينما كان يمسحُ الدمع من عينِ أمي

وهي تهزُّ (مهدي النُّحاسي) حزينةً ووحيدة

في بيتنا القديم في (كوباني)

كيفَ لا أستدلُّ عليكَ

كيف لا أعرفُ الأغنية الرقيقة التي رافقَت (هدهداتِ) أمّي الحزينة

من حدودِ الريف المغربيّ البعيد.

– 3 –

لأصلَ إليكَ

ولدت الحرب الطويلة في بلادي

هربتُ بقلبٍ جريحٍ ومهجورٍ

من كلّ ما أحببتُهُ هناك

لأتوسّدَ عشبَ الألفةِ للمدنِ الغريبة
التي تنتمي إليها
هجرتُ أمي
قطعتُ سبع دولٍ
قشرتُ ملحَ الأجساد التي أحببتُها عن جلدي
فطمتُ فمي عن حليب أمي والحنين
أضعتُ صورة أبي في البحر
لوحتُ للموتِ مراراً
بجبهتي التي حرقتها شمس اللجوء
فقط لأصلَ إليكَ
لأعانقكَ مرّةً واحدة
بهشاشةِ الناجين من الحربِ
أنا التي لم أعرفكَ أبداً.

يحبّونكَ مهزوماً

الذين يحبُّونكَ
يحبّونكَ مهزوماً ومنكسراً
كموجةِ بحرٍ
ارمِ لهم كلّ شيء
أصابعَكَ
اسمكَ المُبتهج
الحنانَ في صوتكَ
مفاتيحَ بيتكَ
الشامةَ الصغيرة التي تُضيء وجهكَ
الطريقة التي تضحك بها
كسمندلِ بحر
النجمةَ التي تُرافقُ وحدتكَ
لغتكَ التي لها رنينُ فضّةِ العروس

الغفرانَ الذي في قلبك
لا تُبقِ لنفسكَ شيئاً
جاهِدْ ككلّ الأنبياء لتخسر
اِخسَرْ لتربحَ الذين يحبّونكَ
كُنْ ندماً طويلاً لفرحٍ قصير
كن بيتاً بلا نوافذ
كن مغارةَ ملحٍ لا تدخلها الشمس
كن بريدَ حبٍّ لشاعرٍ ميت
الذين يحبّونكَ
يحبّونك مهزوماً ومنكسراً
لذا اسقُطْ
اسقط مع يوسفَ في بئر
لا تسمحْ للسيَّارة أن ينقذوكَ
اسقط ببحَّة حزنِ عجوزٍ لاجئة
اسقط في نحاس الخيميائيّين
ولا تتحوّل إلى ذَهبٍ
اسقط ببكاءِ قطَّةٍ سوداء
فقدَت عينيها
اسقط في الوحدةِ التي لا جدرانَ لها
اسقط في اليأسِ الذي لهُ نافذة على المقبرة
اسقط كلّما ارتفعْت

وإيّاك أن تفكّر كغيمةٍ
بجناحَي طائر سيمرغ في الأعالي
فالذين يحبّونكَ
يحبّونكَ كجناحِ طائر في المصيدة
مهزوماً ومنكسراً..

الجنود طرائد لا تنام

الجنود الذين يخوضونَ الحروب
هل لمستْ أصابعُهم الخشِنة
رقّةَ أيدي أطفالهم؟
هل عرفوا الحنان يوماً؟

الجنود
الذين يخوضونَ الحروب
هل ولدوا أطفالاً صغاراً
ببشراتٍ ناعمة وضحكاتٍ رهيفة؟!
هل حمّمتهم أمهاتهم
بالماء الساخن وصابون الغار
ومشّطت شعورهم مبتسمة؟!
هل لعبوا مع آبائهم
لعبة الحرب والجندي الذي يدافع عن بلاده؟

هل قفزوا في أحضانهم
كجراءٍ صغيرة وبريئة
وناموا من التعبِ؟

الجنود
الذين يحملونَ البنادق
الجنود الذين يضغطون
على أزرار الطائرة
لترمي البراميل على الأحياء السكنية
والحدائق والمشافي؟!!

الجنود
الذين يقصفونَ ليل نهار رافعين شارة
النصر
بعد كلّ مجزرة
هل شاهدوا يوماً
الغروب القُرمزيّ لتلك القرى؟!
هل كانوا مراهقين وشباباً
مشَوا في شوارع تلك المدن
وغازلوا صديقاتهم في أزقّتها الضيّقة
مختلسين قبلةً صغيرة؟!

ألم ينتظروا حبيباتهم أمام
أبواب المدارس والحدائق
حاملين بيدهم وردةً حمراء
ورسالةَ حبّ؟!

الجنود
الذين يردّدونَ:
الموت.. الموت.. الموت للأعداء!
العدوّ الذي كان صديقَ الأمس
صديق العمل
صديق الطفولة
صديق الدراسة
العدو.. بنت الجيران الجميلة
العدو من بكيت معه مرّة من القهر
ونمتَ على كتفهِ في الباص المدرسيّ؟

الجنود
الذين يخوضون الحروب
بلا ذاكرة
هل سيكبرون يوماً
يصبحونَ عجائز وحيدين

تسقطُ منهم دمعةٌ كبيرة
تُدْعَى
النَّدم؟!

لأنّكَ معي أيّها الحُبّ

أشياء رهيبة
لن أكترثَ إن حدثت معي
أن أكون مولودةً في إحدى الجزر الإفريقية
في القرن الثامن عشر
زنجيّةً سوداء
بردفَينِ يلمعانِ تحت شمس إفريقيا
بعِقدٍ وأساورَ فضّيّةٍ حول عنقي ومعصمي
...
باكراً أستيقظ
قبل أن تمدَّ الشمس الحارقة رأسها من الأفق
أجلبُ الماء بدلوٍ فوق رأسي
أسوقُ قطعان الأغنام إلى البرِّيّةِ بقدمَين حافيتين
فيما أغنيةٌ إفريقية قديمة عن الغيم الأبيض تدورُ في فمي
يسمعني بحّارةٌ أمريكيون

يخطفونني وأغنيتي الإفريقية من الساحل الغربي
يقيّدونني بالسلاسل الحديدية
يسوقونني كحيوانٍ ذليل
يُخفونني في قبو السفينة المظلم
أقضي شهوراً طويلة في البحر
تأكلُ الجرذان الجائعة أظافري
والقليلَ من لحمي الأسود المُرّ
أُباعُ في سوق النخاسة
لأحد المزارعين الأمريكيين الأغنياء
أعملُ نصف اليوم في مزارع قصب السكر
تتشرّبُ مسامات قدمَيّ الحرّتين
الوحلَ والطين الأمريكي الممرّغ بدماء الهنود الحمر
أخدمُ أعدائي حتى آخر الليل بِصمت
أتقبّلُ الإهانات والشتائم وأبتلعها ككوبِ حليبٍ طازج
أحيكُ سرّاً المكائد للهروبِ والعودة إلى شمس إفريقيا
فأُمسَكُ وأجلَدُ عشرين جلدةً من جلدِ الخرتيت القاسي
تُكوى ذراعي بالحديد الحامي
لأنّني استغرقتُ فترة طويلة في مراقبة إوزّات النهر
أثناء غسل ثياب مالكي
أشاهدُ أبناء جلدتي يُشنَقون
وتعلّق جثثهم كفزاعات قشٍّ على الأشجار

أبكي ليلاً
وأستيقظُ بابتسامةٍ حارّة كشمس إفريقيا
غير مكترثةٍ بكلّ الأشياء الرهيبة التي حدثت معي
فقط لأنّكَ معي أيُّها الحُبّ!
فقط
لأنّكَ معي أيُّها الحُبّ!

يُحبُّني عِشرونَ رجلاً

لي وَجهُ
امرأةٍ مُزارعةٍ بحقولِ القطن
في إثيوبيا بالقرنِ التاسعَ عشرَ
لا ابتسامة غامضةً كموناليزا
تَرتسمُ على شفاهِي
لا أُغنّي بصوتٍ دافئ
كـ لارا فابيان وهي تصرخُ:
«Je Suis Malade!»
لا أُجيدُ الطبخَ.. ولا الحياكةَ
ويُمكنُ أن أكسرَ عشرينَ صحناً
وبلاداً من العشّاقِ بلحظةِ غضبٍ
لا أُجيدُ الإغواءَ مثلَ نيكول كيدمان
و..
يُحبّني عشرونَ رجلاً.

لا أصفعُ رجالَ البوليس
حينما يضعونَ الغَراماتِ على سياراتِ أصدقائي
لا أسمعُ الموسيقا الصاخبةَ والمثيرة
لا أحملُ في حقيبةِ يدي علبةَ سجائر
ويمكنُ أن أقتلَ أحداً لا أعرفُهُ
لأنّهُ رفضَ إعطائي سيجارةً حينما اشتهيتُها
لا أميّزُ بينَ طعمِ الفودكا والبراندي
لا أمشي في الشوارعِ حاملةً قطّتي
كصبايا الطبقةِ المخمليّة
وتتحوّلُ لكُنتي الهادئة
إلى لكنةِ امرأةٍ تبيعُ السمكَ
في حيٍّ شعبيٍّ من أحياءِ استنبول
حينما أستيقظُ باكراً
و..
يُحبُّني عشرونَ رجلاً.

لا أقودُ سيارةَ فولكس فاغن
ويمكنُ أن أمشي لساعاتٍ طويلة
وتدهسَني سيارةٌ دونَ أن أكترث
لا أجرؤُ على قولِ جُملٍ إباحيّةٍ في إذنِ أحد
لا أضعُ وشماً على سرّتي

لا أقلّدُ مارلين مونرو
وليسَ لديّ مؤخّرةُ كيم كارداشيان
لا أسردُ شعراً أو نثراً أمامَ أحد
و..
يُحبُّني عشرونَ رجلاً.

لا أسهرُ في النوادي الليليّةِ
كعنقودِ عنبٍ غاوٍ
ليسَ لديّ شفتانِ مكتنزتان
ليسَ لديّ فساتينُ قصيرة
ليسَ لديّ أبٌ
ليسَ لديّ مدينةٌ أتّكئُ على كتفِها
ليسَ لديّ قلبٌ أيضاً
ولا أُحبُّ أحداً
و..
يحبُّني عشرونَ رجلاً..

حُقنةُ بوتاسيوم لموتٍ سهل

أتصَدِّقُ الحياة
أنّ الموتَ سهلٌ هكذا
كتكرارِ لاحقة (je t'aime) في أغنيةٍ فرنسيّة
كعدِّ الأرقامِ من 1 إلى 10 في حصّةِ الرياضيات بجامعةِ هارفارد
كالتنزُّهِ صُحبة حيواناتِنا البريئةِ في يومٍ مشمسٍ
حُقنةُ بوتاسيوم صغيرةٌ بالوريد
ويتوقفُ القلبُ كعجلةٍ صدئةٍ بهدوء
بلا آلام
بلا دماءٍ تُلوّثُ شراشفَ أسرّتنا
بلا حشرجاتٍ كتلك التي تُرافقُ
حوادثَ السَّيرِ وحزّ الشريانِ بالمشرطِ أو السقوطَ من الطابقِ العاشر
الموتُ سهلٌ هكذا مع حُقنة بوتاسيوم بالوريد
تُغادرُ خفيفاً كما لو كنتَ قصيدةً بمخيّلةِ شاعر
لا تعودُ الحياةُ عبئاً
ولا يعودُ ذهنكَ يفكّرُ في الكثيرِ من الأمور.

لن يعودَ ليقلقكَ أمرُ العاصفةِ الثلجيّة
ولا المدفأةُ التي لم تتعلّم كيف تُلقمها بالحطب
ولا الفوضى العارمةُ في مطبخِكَ
ولا عتابُ الأصدقاءِ ورسائلهم المُنتظرة في الإنبوكس
ولا حتّى الحُبّ الذي ينامُ كلّ ليلةٍ على ركبتِك
ويغادرُ دونَ أن يلمسَ وحدتكَ
لن تعودَ لتفكرَ بقلقِ أمّكَ عليكَ
ولا بالحنينِ إلى تلكَ المدنِ
التي تركتَها وسطَ الحرب
والأهمُّ أنَّ حقنةَ البوتاسيوم هذهِ
رخيصةٌ
رخيصةٌ جدّاً كعاهرة
وتستطيعُ الحصولَ عليها من أقربِ صيدلية
في الحيّ الذي تُقيمُ فيهِ
الموتُ سهلٌ هكذا
صدّقني لن يكونَ بالأمرِ الصعب
فجأةً تتوقفُ الحياة
الحياةُ الكبيرةُ
الحياةُ القاسيةُ
الحياةُ الحادّة
الحياةُ التي تشبهُ معدناً رديئاً يتجوّلُ في دمكَ

دمُكَ السهلُ العشبيُّ الأخضرُ للخيولِ البريّة
وأنتَ..
أنتَ..
حصانٌ بريٌّ لم يروض
حصانٌ يتوقُ للركضِ في البراري الآمنة
تلك البراري التي لم تشاهد لها مثيلاً
في حياتكَ السابقة..

لا يموتُ الحُبّ ككلبٍ عجوز

لن يهمّ ما إن عشتُ طويلاً
كمُعمّرة يابانية لـ 117 عاماً
أو متُّ الآن صبيّةً شاعرةً في الـ 29
فمن يكترث للأعوام الغبيّة
ما دام سيَموتُ الحُب بقلبي ككلبٍ عجوز؟

كلاهما حياةٌ متعفّنة:
الموت بهدوءٍ على سريرٍ نظيف
بعمرِ السبعين وحولي الأبناء والأحفاد
والموت تحت أنقاض منزلٍ سقط عليه برميلٌ متفجّر
فمن يَغْبأ لإكسسوارات الموت
ما دام سيَموتُ الحُب بقلبي ككلبٍ عجوز؟

تمرينان شاقّان للشيخوخة
أن أنجب ثلاثة أطفال

وأبنيَ بيتاً
أشرب مع الجيران في حديقتهم
قهوة الصباح
أو أكون عجوزاً وحيدة في مأوىً للعجزة
ولكن من سيكترث لكلّ هذه المشقّة
ما دام سيَموتُ الحُب بقلبي ككلبٍ عجوز؟

ليس بالأمر الجوهريّ
أن يُرشّح اسمي كشاعرةٍ تكتب الشِّعر بلغةِ الفضّة
أو تُنسى قصائدي كأيّة سجلّات مهمَلة في دائرة حكوميّة
صُنّفت تحت بند التلفيّات
ما دام سيَموتُ الحُب بقلبي ككلبٍ عجوز.

كمشاهدةِ إعلانٍ طرقيّ عابر
سيكون إعلانُ الرجال حبّهم لي
كما لو أنني أقود سيارتي على أوتوستراد مزدحم
فيمرّ غزلهم أمامي دون أثر
ما دام سيَموتُ الحُب بقلبي ككلبٍ عجوز.

أمّا أن أقفزَ فرحاً كجروٍ صغير
بسماع طَرْقِ يدَيك على جرس منزلي

فهو فقط ما يجعلُ
الحبّ لا يموتُ بقلبي ككلبٍ عجوز
بل يبقى غزالاً طليقاً
حتى تصدمهُ شاحنةٌ ما
وهو يعبر أوتوستراداً خالياً
يدعى النسيان..

قلبي المُتّسِخ بالحبّ

لم أحلُم بحياةٍ طويلة
يكفيني تسعةٌ وعشرونَ عاماً
بِصُحبةِ قلبِي المُتّسخِ كمنظّفِ مداخن
في (ميلانو)
قلبِي الذي يصلحُ لطلاءِ المنازلِ التي اهتراَ دهانُها
وربّما يصلحُ لحفرِ مُجسّماتِ الرعبِ
من ثمرةِ القرعِ في عيدِ الهالوين
في (إيرلندا) الدامية
وقد يصلحُ لوضعِ فوارغِ علب البيرة في حاويةٍ بنهايةِ الشارع
وربّما يصلحُ للتنزّهِ بصحبة أنقاضِ مدينةٍ خارجةٍ من الحربِ
أو عاشقٍ يمشي قلبُه تحتَ قدميَّ
قلبي المُتمرّغُ بوحلِ الشِّعر
بوحلِ الخساراتِ المصفوفةِ كبَيضٍ ملوّنٍ للزينة
قلبي المُتّسخُ هذا

لا يكفيني لحياةٍ طويلة
ولو أنّني ولدتُ من أمٍّ أمريكيّة
وأبٍ مهاجرٍ من (اليونان)
لكنتُ تعلّمتُ كيف أنطقُ
بلكنةٍ يونانيّة سليمة
كلمة «أحبّكَ»
«σ ‘αγαπώ»
ولكان لي قلبٌ صالحٌ لحياةٍ طويلة
قلبٌ كزهرةِ آسٍ تتفتّحُ في أيّارَ كلّ عام
في إحدى حدائقِ اليونان
لربّما كانت قامتي أطول
ولم أُضطرّ لارتداءِ الكعوبِ العالية
وحتماً لم تكن لي ذاكرةٌ تخصُّ الحرب
ولم أكن بهذا المزاجِ التعسِ الذي يرمي
الناسَ بمِنفضةِ سجائرَ
حينما يتوقّفُ عن الحُبّ.

لم أحلُم بحياةٍ طويلة
بصحبة قلبي المتّسخِ هذا
قلبي الذي يشفقُ على رجلٍ يستذكرُ ماضيه
يعطيهِ منديلاً من حقيبتي الحمراء

يجفّفُ الدمعَ من عينيه
وحينما لا يتوقّفُ عن النواح
يهيلُ ترابَ الشارعِ عليه
ويتركُهُ فاغراً فمهُ أمامَ كلبٍ مُتشرّدٍ
لا يفقهُ بالحزنِ والبكاء
قلبي الذي بكى مرّةً
لأنَّ الحليبَ الذي قدّمَتهُ لي جدّتي كان ساخناً
وبكى مرة أخرى لأنني لم أعرف أبداً
أين يذهبُ الحبُّ حينما ينتهي.

لم أحلم بحياةٍ طويلة
يكفيني تسعةٌ وعشرونَ عاماً
بصحبة قلبي المتّسخِ كسجّادةٍ ممدودةٍ أمامَ بابِ جامعٍ ضخم
قلبي المتّسخُ
الذي سيتحوّلُ إلى ترابٍ ستمشي عليهِ بقدميكَ
في يومٍ ماطرٍ، وستستنشقُ رائحتي مُمتزجةً بالتراب
وتقولُ: آهٍ! طويلةً كنهرِ الأمازون
فيما الهواءُ الذي كانَ يعبرُ رئتي
يتجوّلُ كعازفِ (ساكسفون) في رئاتِ الرجالِ الغرباء
الذين لا يعرفون اسمَ أمّي
ولا يفهمون لماذا أحطّم حياتي

كجرّةِ فخّارٍ قديمة
الرجالُ الغرباءُ الذين
لا يعرفونَ لماذا تركضُ الخيولُ البريّة
في مساحاتِ جسدي الحُرّة
ولا يدركونَ أبداً
كيف يبقى العشبُ أخضرَ
في خريفِ قلبي المتّسخِ هذا

لم أحلم بحياةٍ طويلة
تكفيني تسعةٌ وعشرونَ عاماً
بصحبةِ قلبي المتّسخ بالحبّ
قلبي الصالح لوضعه كعشبٍ تحتَ أقدامِ
سبعة مليارات من البشر
دونَ أن يأبهَ بأوجاعِ البشريّةِ
إنّما يمضي مُستغرقاً
في الإصغاءِ لمقطوعة «Carmina Burana»
ويحلُمُ
بعالمٍ سعيد..

قبل الثلاثين بقليل.. قبّلني!

كامرأةٍ سيّئة
لا ملامحَ لها
تبيع جسدَها على رصيفٍ مزدحم في (برلين)
حفرتُ حفرةً صغيرة
تحت شجرة زانٍ خضراءَ في منتزه
(فورستنفالدي)
حفرةً تتّسعُ لأدفنَ فيها ثلاثين عاماً
من بلدٍ خراب وثيابٍ قديمة
وأحذيةٍ في خزائن منزلي المتعدّدة
وقصائدَ ميتة
والكثير من العشّاق البائسين.

قبل الثلاثين بقليل
طمرْتُ التراب جيّداً بحنانٍ بالغ

كما فعلتُ بتراب قبر أبي
في (أغسطس)
بلدٍ آخر
«الموتى لا يعودون»
همستُ بأذن شجرة الزان
ووضعت أحمر الشفاه على فمي الجاف
أرسلت رسالة حبٍّ قصيرة:
«هيّا تعال
المزيد من القبلات بانتظارك
قبل أن تذوي الحديقة»!
هو وأنا
نعرف جيّداً أنّ الحديقة التي تفتّحت هذا الصباح
لا تعرف شيئاً عن المدن التي أذاقت
العرَق المالح لقدمَيّ الصغيرتين
ولا خبرة لها بالحرب التي طحنت مُدني الأولى
الحديقة التي تفتّحت هذا الصباح تبتسم
لتجاعيدَ لم تظهر بعدُ على وجهي
ولا تعرف أنّ «الحبّ سيرومُ مضادٌّ للشيخوخة».

قبل الثلاثين بقليل
كامرأةٍ سيّئة تبيع ماضيها بمئة يورو لسكّير

أبيع تلك الأعوام مجّاناً
لحرس الحدود في الدول التي قطعْتُها هرباً من حربٍ لم أُرِدْها
لرجال الضرائب في (ألمانيا الرأسمالية)
التي أقيم فيها
للنازيين الجدد وهم يهتفون:
«لا نريد لاجئين»!
للرجال الذين تعلّقوا بقفطاني الكرديّ الملوّن
كأزهار توليب لحظةَ الوداع
فأرسلتُهم للجحيم مبتسمين
بعد أن دفنت زهورهم
رسائلهم
أسماءهم
بحّة أصواتهم
وجراحهم
تحت شجرةٍ خضراءَ أخرى.

قبل الثلاثين بقليل
أضحك لقسوةٍ مرّت بها حياتي وأردّد:
امرأةٌ عاشقة أنا
امرأةٌ لا تشيخ
امرأة لا تخفي آثار الحبّ عن عنقها

سُرّتها
نهديها
ولا تندم يوماً على لدغة الأفعى بين ساقيها
امرأةٌ سيّئة
تشتم العالم بمنتصف كأس الـ(فودكا)
تهاجم النظام الحاكم في بلدها
فيما تحبُّ جندياً على حاجز أمنيٍّ يبعد أمتاراً قليلة
عن مدخل منزلها
امرأةٌ سيّئة
تبتسم للرجال الغرباء بلا سبب
فقط لأنّ أحداً ما قال لها ذات مرّة:
«ابتسامتك صنيعة الربّ فلا تبخلي بها»!
امرأةٌ تبتسم للاجئين أفارقة
لباعة الماركيت
لكلب جارها الألماني
لنشرة الأخبار الدامية
لزهرة غريبة تحت شجرة الزان الخضراء
وتردّد بلكنةٍ ألمانية ركيكة على كلّ غزل:
«Danke schon»
امرأةٌ سيّئة جدّاً
لكنّها حين تحتضن رجلاً تحبّه بين ذراعيها
يقيم الغيم منازله في أحضانها.

قبل الثلاثين بقليل
عرّيْتُ جسدي أمام مرأى الشعر
وأشّرت له:
هنا ندوبي القديمة
هنا أثر الحصبة على ظهري
أثر الحجر الصغير على ركبتي
أثر قبلة حبٍّ طازجة على عنقي
وأثرُ الوحدة في قصيدتي.

قبل الثلاثين بقليل
أتعلّم ركوب الدرّاجة الهوائية
أتعلّم المزيد من الجمل البذيئة
ولا أنسى تعلّم رسم غيمةٍ في مخيّلة القارئ
ولا أكترث إذا قيلَ بهمسٍ:
«ما أقساها من امرأة!»
لأنّني أبيعُ ثلاثين عاماً مضت بما فيها
فقط لأهتفَ بالشعر:
«قبّلني!
قبّلني!
قبّلني قبل الثلاثين بقليل!»..

قصائدُ تطيرُ باتجاهِ الجنوب

ليسَ لي يدُ رسولٍ
لأهشَّ بها على أفاعي الذكريات
فتتبخّر لغيمٍ بعيد
وأنامُ كيوسفَ مطمئنّةَ البالِ
من غدرِ الإخوةِ المُحكم
أطلقوا عليَّ اسم
«وداد نبي»
ولم آخذ من اسمي
سوى كذبِ النبوّةِ
الذي حوّلني من نطفةٍ في ظهرِ أبي
إلى غزالةٍ صغيرة
تحبو بينَ يديكَ
...
يداكَ

نقّالةُ موتى
ستأتي متأخّرةً إلى جنازتي.

ليسَ لي أرضٌ
لأُدفنَ فيها
كما يُدفَنُ قِطٌّ غريبٌ
قُتِلَ برصاصةِ حُبٍّ طائشة
تركتُ أرضي وبيتي
وحمولةَ القلبِ الثقيلة
في مكانٍ بعيد
تتقاذفهُ الحروبُ
وأمراءُ السلاحِ والحاكمون بأمرِ الرّبّ
...
الرّبُّ الذي لم ينتبه يوماً
لما ينبعُ من عينَيّ
ويغسلُ
حجارةَ قبر أبي كلَّ ليلة.

ليسَ لي أساطيرُ
لأسردَها على مسمعِ التاريخ
فيغفرَ لي

غدري بالطينِ الذي شُكِّلتُ منهُ
لي بضعُ صورٍ
أخافُ عليها من هواء رئتي
إذ كلما شهقتُ حنيناً
طارت أسراباً
أسراباً
باتّجاه الجنوب..

طردٌ بريديٌّ مُستعجل

رائحتُكَ
تحتلُّ منزلي وحديقةَ الجيران
تسقي معي زهورَ الشُّرفة
تضع معي الطّعام للقطّة
تغسلُ معي الصحونَ
وترافقني للتسوّقِ من (الميني ماركت)
تنبحُ ككلبٍ مخلصٍ
على عيونِ الرجل الذي يُراقبُ
فتحةَ قميصي
تُكشّرُ منزعجةً من ملاءاتِ سريري النظيفة
وتنامُ معي كلَّ ليلةٍ
مُتوسّدةً جسدي البارد
كجثّةٍ في مقبرةٍ جماعيّة.

السعادةُ معكَ لم تحتجْ إلى معجزات
حزيرانُ ماطرٌ
طرقٌ خفيفٌ على الباب
وسقوطٌ مدوٍّ
لطائرَين أزرقَين
من سماءِ الشهوة
إلى أرضِ الروائحِ الصلبة
حيثُ القُبلةُ
طردٌ بريديٌّ مُستعجل
بينَ رئتين تتبادلان
سيرومَ الأوكسجين
في غرفةِ العنايةِ المُشدّدة.

اختبأتُ باسمكَ
حينما بحثَ عنّي القتَلة
ليقنصوا
الحريّةَ من شفاهِ قصيدتي
كان اسمُكَ
سياجاً شائكاً أمامَ أقدامِهم المُدجّجة
بالبارود.

الأغنيةُ التي تُحبُّ
ابتسامتُكَ في المطار
قصاصةُ الورقةِ التي كتبتَ عليها مرّة:
«Ez û Tu»[1] ورميتها في فوهة المدفأة
همهماتُك غير المسموعة
كلها تعوي الآن
تعوي ككلبٍ ضالٍّ ومخلص
ولا تجدُ طريقَ العودةِ إلى المنزل
المنزلُ (قلبي) (قلبُكَ)
وما بينهما الهاوية.

بالبريدِ المضمونِ أُرسلُ إليكَ
رائحتي
أقراطي
خاتمَ زواجي
طلاءَ أظافري
نوبةَ الألمِ في كِلْيتي
قميصي الأزرق
وطائراً أبيضَ يحطّ كلّ ليلةٍ
على سُرّتي
ولا ينام..

1- عبارة باللغة الكردية تعني «أنا وأنت».

لطائرٍ في البعيد

حينما لا يعودُ لي ما أفعلهُ
حينما لا تدهسُني الشاحنة الكبيرة
حينما تنتهي القهوة من مطبخي
ولا أجدُ سيجارة واحدة أدخّنها
حينما لا تنتابني رغبة في الحُبّ أو التنزّه في الحديقة
والإصغاء لأغاني (ليونارد كوهين)
حينما تنتهي صديقاتي من إفراغِ خيباتهنّ وبؤسهنّ بوجهي
حينئذٍ أكتبُ شِعراً
أو نثراً طويلاً
أكتبُ عن نساءٍ يقتُلن الحبّ بكعبِ حذائهن العالي
عن حُبٍّ يقتلُ النساء حينما يأتي متأخراً وينام معهن
على أسرّتهنّ بين عناق أزواجهن
عن شهواتٍ تبقى حبيسة أجسادٍ هرمة
عن أجسادٍ فتية صالحة للحُبّ مختبئة تحت أوراق التين الخضراء

عن قبلٍ سُرقت من شفاهِ عاشقين
عن شفاهٍ رديئة سرقت القُبل
عن امرأة تخون زوجها
عن زوج يخون زوجته
عن رائحة عفونة تصدرُ من أجسادِ نساء ورجال لم يلمس الحُبّ شهوتهم
عن أكاذيبَ يردّدها الجميع
عن خيانة يمارسها الجميع
عن بلادٍ بالية
على سرير كل زوجين فيها يوجدُ (ثالث) يستمني
بخيال كلّ زوجَين على حدة
حينما لا يعودُ لي ما أفعله
ولا تدهسُني الشاحنة الكبيرة
ويفلت الشِّعر يده من يدي
ويهرب من وجهي
أبصقُ في وجهِ العالم الرديء
أرمي كلَّ ما كتبتهُ في الحديقةِ الخلفية لحيواتهم المتعدّدة
وأبتسمُ لطائرٍ يُحلّقُ في البعيد..

أُديرُ ظهري للحُبّ

أديرُ ظهري
لثقلِ واحدٍ وأربعين عاماً
وضعناها على جسرِ (البوسفور)
لتمشي عليها ضحكاتُنا في الغياب
أديرُ ظهري
للموسيقا الصاخبةِ التي تسكنُ في الشقّةِ المجاورة
فمن يكترثُ بالأغاني السعيدة
بالأقدامِ التي لا تتوقّفُ عن الرقص
برَنينِ كؤوسِ (الفودكا) في أيدي نساءٍ جميلات
وأشجار الهِجران التي تنمو في صدرهِ
أديرُ ظهري
كما لو كنتُ (مانيكان)
معروضاً في واجهة محلٍّ فاخر
(مانيكان) يلبسُ فستانَ سهرةٍ من الساتان الأزرق

ولا يبالي بالعيونِ التي تأكلُ قطعةً منهُ

أديرُ ظهري

لنصائحِ الأصدقاء

لوصايا أمّي

لتلويحةِ يدِ الحُبّ

لألبومِ الصورِ القديمةِ

وألتفتُ للشيءِ الوحيدِ

الذي غادرَني مرّة ولم أعرفهُ أبداً

شيءٍ لهُ رائحةُ الحبّ تحتَ الجلدِ البشري

شيءٍ يشبهُ صرخاتِ طفولةٍ شقيّةٍ تلعبُ بالماء في نهارٍ صيفيٍّ حارّ

أديرُ ظهري

للحُبّ الذي لمستُ الشِّعر فيهِ

أهَبُهُ كناريَّ الحزين

وكشاعرةٍ تتقنُ زجّ البهجة في كأسِ الخسارة

ألبسُ ثوبي القصيرَ وأضحكُ بوجهِ الريحِ

خفيفٌ قلبِي

خفيفٌ كثوبي القصير

ضاحكٌ كوجهِ الريحِ وهو يعانقِ ساقي العارية

أديرُ ظهري

لاستعاراتِ الشِّعر

تلك التي تُعمّرُ كأشجارِ (التبلدي) لأكثرَ من ألفِ عام

لا لشيءٍ
إلّا لتظلّلَ قبرَ الشاعرِ
أديرُ ظهري
لما عِشتهُ كهواءٍ
لما كتبتهُ كأبدٍ
لما سأنساهُ كعابرٍ
وأعضُّ على شفتي السُّفلى
كاستعارةِ حُبٍّ في نصٍّ قصير..

الأرقامُ..
كما لو كانت ثمانينَ عاماً من الحُبّ

خمسونَ زهرةَ نرجسٍ برّيّةً
تفتّحت قُربَ مقبرةٍ ما
مررْتُ بها لأحصيَها
برقّةِ الغبارِ المُتناثرِ بالهواءِ
واحد..
اثنان..
ثلاث.. عشر.. خمسون
والمساميرُ ملأتِ الهواءَ
كلُّ رقمٍ خدشَ حنجرتي بجرحٍ
أغلقتُ بابَ المقبرة
ودوّنتُ سطريَ الأولَ
أكرهُ الأرقامَ
أيّتها الرياضيّاتُ البليدةُ

ستُّ مُتواليات هندسيّة
حاصرَت رأسي مساءً
191 ألفاً و369 شخصاً قُتلُوا في سوريا
215 ألف سوريٍّ في معتقلاتِ النظام
350000 لاجئٍ نزحوا من مدينة (كوباني)
365 قرية في (كوباني) مُهجورة مع مقابرها
456 سورياً غريقاً في بحارِ الموتِ
كسرتُ شاشةَ التلفاز
ودوّنتُ سطري الثاني على بابِ المقبرةِ
أكرهُ الأرقام
أيّتها الرياضيّاتُ البليدة
نامَ في الكهفِ وفي عينيه وحشةُ أوّل بشريٍّ
كان ذاكَ الرقمُ 1
يتألّمُ وحيداً خالداً على طرفِ حبٍّ مستحيل
الرقم 3
المسافةُ التي تبعدني عن حلبَ وأمي
الرقم 4
مسافةُ الكيلومترات بيني وبينَ (كوباني) حينما أقفُ
لأراقبَها كغريبةٍ على الخطّ الحدودي
الرقم 4 كم
دوّنتُ سطري الثالثَ على باب المقبرةِ

أكرهُ الأرقامَ
وهي تُهشّمُ بمجرفتها
جمجمةَ مزهريّةِ الوردِ في بيتي
أيّتها الرياضيّاتُ البليدةُ
كيفَ سأحبُّ رقماً
وكلُّ رقمٍ يضيفُ روحاً قتيلةً في بلادي
كلّ رقمٍ.. كعب (أخيل)
يُصيبُ الروحَ بالمقتلِ ولا يقتل
دوّنتُ سطري الرابع على بابِ المقبرة
أكرهكِ أيّتها الأرقامُ
منذُ اخترعَ إقليدس نظريّتهُ في الأعداد
وصرخَ: «لا يوجدُ طريقٌ ملكيٌّ إلى الهندسة»!
مُذ قرّرَ أنّه
(من نقطتين يمرُّ مُستقيمٌ وحيد).
ولم يعرف أبداً
أنّه من نقطةٍ يمرُّ أيضاً مستقيمان:
واحدٌ لقياسِ طولِ الموت
والآخر لقياسِ طولِ الديدانِ
وهي تنهشُ جثثَ القتلى
غادرتُ المقبرةَ باتجاهِ بيتكَ
ودوّنتُ سطريَ السادسَ

179 سنتمتراً طولُكَ
يهتفُ البابُ الخشبيُّ وأنت تعبرهُ
أدوّنُ..
أحبّك أيّتها الأرقامُ
أيّتها الرياضيّاتُ البليدةُ
72 كيلوغراماً وزنُكَ
تهتفُ الأرضيّةُ الخشبيّةُ لبيتِك
أدوّنُ..
أحبّك أيّتها الأرقامُ
أيّتها الرياضيّاتُ البليدةُ
ستعيشين 80 عاماً وستموتينَ بينَ ذراعيّ
بشعركِ الأبيضِ الطويلِ
وبخمسِ تجاعيدَ حولَ كلّ عين
لا أتوقّفُ عن التدوين
أحبّك أيّتها الأرقام
أيّتها الرياضيّاتُ الحيّة..

يا حُبّ

لا تُعانق جُلّناراً هشّاً
وصبيّةً بعينينِ بُنِّيّتَينِ
قاتلٌ هو القلبُ
قرنُ غزالٍ يجرحُ عُشبَ الطريقِ
والجلنارُ مقصلةُ الشّعر
لذائباتِ الحنينِ
يا حُبُّ
الصبيّةُ ذاتُ الشَعرِ الطويلِ
ضُمّها لغدِك
استحوذها شمساً ترقصُ
كخنجرِ فضّةٍ على مياهِ الغريبِ
وخُذ رائحتَها تميمةً
لغدِ البلادِ بأنقاضِ الحروب
وليكن اسمُها
نقشاً صوفيّاً مُعلّقاً
بلا مُبالاةِ الحنين..

القهوة كعملٍ منزليٍّ للوحدة

أصنعُ القهوة
أكثر عملٍ منزليٍّ أُجيدهُ كربّةِ منزل
أصغي لرائحةِ المرارة وهي تغلي
كما تشبهُ تلك المرارة القديمة التي لدغت قلبي
حينما غادرتُ البلاد منذ أكثر من عامين

أُحرِّكُ بملعقةِ القهوة
البنَّ المترسّب في قعر الركوة
أصنع دوّامة صغيرة
كما كنتُ أحرّك
ستائر آخر منزلٍ غادرتُهُ
الحركةُ علامة مغادرة دائماً
الأشياء التي تبقى على حالها لا تغادر، تبقى ثابتةً وأزليّة في حياتنا
لكن الحركة تشي تلقائياً بفعلِ الرحيل والتغيّر

فأن نحرِّكَ البنَّ في قعرِ الركوة.. فنحنُ نجهّزهُ لمغادرة عالمهِ البدائيّ إلى شكلٍ آخر

أن نحرّكَ ستائر منازلنا قبيل مغادرتنا بخِفّةٍ تشبه الخفّة التي يغادر بها الرجالُ النساء

ولا ننظر وراءنا مرّة أخرى

فقط الستائر تبقى

وإن داعبَتها الريحُ كآخر تذكارٍ من يدنا.

أصنعُ القهوة

أقلّ الأعمال المنزلية تعباً

وأضحك مع البنّ المطحون وهو يحدّثني بهمهمةٍ لا يفهمها إلا الوحيدون

عن ذاكرة أخرى تضجُّ بفناجين قهوة كانت تقدّم على سرير الحبّ

عن فناجينِ قهوة تسرد قصص النميمة الصغيرة لنساء العائلة

عن فتوحات رجالها الغراميّة

عن مدنٍ لها مزاج القهوة في ظهيراتِ تموز الحارقة

أفرغ القهوة في فنجاني الأبيض

أختار دائماً للقهوةِ لون البياض ليكسرَ حدادَ سواده الأزليّ

الذي يغلّفُ حياتنا ومدننا منذ سنوات

بياضٌ لهُ هيئة ابتسامة حُبٍّ لم يكتمل

لفرط هشاشتهِ.

أضعُ القهوة على طاولتي
وأنا أصغي لأخي وهو يحدّثني من مدينة حلب
عن غرفتي وكتبي
والغبار الذي عشّش في كلّ زواياها
«لقد تحوّل منزل العائلة إلى منزلٍ للوحدة».

أصرخ في وجه أخي:
«عليك أن تخرجَ من البلد
عليك أن تخرجَ من البلد»!!
وأُبعدُ فنجان القهوة عنّي
أقصى ما يمكنني:
«لقد تجرّعتُ هذا النهار
ما يكفي من المرارة»..

ما نُربّيهِ هو قاتلنا

(أحبّك)
الكلمة التي تُكتب
على زجاجِ نوافذ الحافلات والقطارات
كم من الزمنِ تظلُّ تلوحُ للمغادرين؟
كم من الأسى تعيشهُ الكلمة
حينما يموتُ الحُبّ
ويبقى الزجاج الهشّ؟

(أحبّك)
الضعيفة
الهشّة
المستسلمة
التي لا تملكُ إبعاد ذرَّة غبار
عالقةٍ بياقة قميص عاشقٍ

هي ذاتها (الكلمة) الوحيدة
التي ترفعُ الندم الهائل
وتضمرهُ بحناجر طيور حزينة
لم تعرف أجنحتُها قسوة الأرض.

(أحبّك)
المُضيئة كنجمِ سُهَيل
على طاولةِ عاشقَين
هي ذاتها الذاوية كشمعةِ بيت فقيرٍ
حينما يمدُّ الفقدُ يدهُ الطويلة
إلى منازلِ الحُبّ.

(أحبّك)
المستعملة في اللغة اليومية
كزلّةِ لسانٍ أزليّة
لها رائحة منزل قديم
حينما تخرجُ من فمِ عاشقٍ
نجا بنفسهِ
من تفاهةِ الأبد.

(أحبّك)
التي نُربّيها كنمرٍ مفترس

في غرفنا الداخلية الصغيرة
نُطعمها جلودنا، قهرنا، ندوبنا
كي لا تؤذينا أكثر
ورغم ذلك نستيقظُ كلّ مرّة
وقد نقص من قلبنا (قطعة).

(أحبّك)
التي تقشرُ جلودنا بسكّينِ الهجران
أكثر مفردات اللغة رواجاً
لا نعثرُ على كتفها قربنا في أكثر الليالي وحشةً
لأنّ ما نُربّيهِ عادةً
يتحوّل إلى قاتِلِنا
في الغدِ القريب..

لنَ أرميكَ بحجرٍ يا اللّه

لنَ أرميكَ بحجرٍ يا اللّه

...

امرأةٌ صغيرةٌ أنا

ضئيلةُ الحجمِ كنساءِ آسيا

يمكنُ أن أختبئَ في كفٍّ عاشقٍ

في خزانةٍ من خزائنِ المطبخِ

أو تحتَ 160 سم من الترابِ بأرضِ بلادِي

امرأةٌ صغيرةٌ أنا

أقل وزناً من غيمةٍ صغيرةٍ من غيومكَ

بعينٍ أَكنسُ الحزنَ من وجوهِ ضيوفِي

وبعينٍ أذرفُ البكاءَ الليليّ قهراً على بلادٍ تفترسُها الحربُ

بيدَيَّ اللتينِ تفوحُ منهما رائحةُ الكلور والقصائد

غيّرتُ وجهَ الحياةِ حولي

أزلتُ الوهمَ وذئابَ الحُبِّ من دربِي الوعر

بنيتُ في كلِّ مكانٍ مررتُ بهِ
عشّاً لطائرٍ مُهاجر
وقبراً صغيراً يتسعُ لعاشقَينِ لا مكانَ لهما.

لنَ أرميكَ بحجرٍ يا اللّه
...
امرأةٌ صغيرةٌ
أعوي في غاباتِ البلادِ التي لا أحدَ لها
أنهشُ بقايا جثث الذكرياتِ القديمةِ نهايةَ كلِّ ليلةٍ
وأشربُ دمَ الغائبينَ بنهمٍ وأنامُ بحسرة
لأنّني تخلّيتُ عن حبّي
ككلبِ عجوزٍ
لبائعاتِ الهوى بشوارع كوبنهاغن
لأتزوّجَ كلباً من كلاب بلادي
امرأةٌ صغيرةٌ
كحبّةِ رزٍّ في صحنِ طعامٍ كبير
أطبخُ العشاءَ كلَّ ليلةٍ
لزوجِي الذي تفوحُ منهُ رائحةُ الطحالبِ البحريّةِ والشحومِ
وأحمّمُ أطفالِي الأربعةَ وأقودُهم إلى أسرّتِهم
كما تقودُ الأمُّ الصالحةُ خرافَها الصغيرةَ
لا أُقصّرُ في فروضِي

أصلّي
أصومُ
أُعطي الزكاةَ
ولا أردُّ مُتسوّلاً عن بابي
وأمنحُ خبزَ بيتي لطيورِكَ التائهةِ
أطيلُ الإصغاءَ لشكوى الجاراتِ البائساتِ
عن أسعارِ الخبزِ المرتفعةِ
في بلادٍ تطحنُها الحربُ
أنامُ بهدوءِ المقبرةِ مُصغيةً لشخيرِ زوجي الليليِّ
وأبتسمُ لهذا الألمِ الذي تملأُ بهِ حياتي
لهذه القسوةِ التي رميتَها بوجهي
ورغمَ كلّ ذلك يا اللّه..
لنَ أرميكَ بحجرٍ
كما فعلتَ وتفعلُ دائماً بحياتي
لكن إذا حدثَ أن وقعتُ في الحُبِّ ثانيةً
سألتقطُ نجمةً من جبينِ حبيبي
وأرميكَ بها بحنانٍ
كما لو كنتَ طفلاً من أطفالِي الأربعة..

لن يكونَ الشِّعر

أبداً
لن يكونَ الشِّعرُ
ممرّاً سرّيّاً لممالكِ المبتهجين
هذا ما تركتْهُ لي الشاعرةُ
فروغ فرخزاد
بينما كانت تعدُّ حقائبَها للسفر
إلى بلادِ الفقدِ البعيدة.

لن يكونَ الشِّعرُ
حياةً طويلة
همسَت بأذني سيلفيا بلاث
واستنشقَت أوّلَ اوكسيد الكربون
ليتدلّى عنقُها من الفرنِ إلى مقصلةِ الشعر
كما تسقطُ فراشةٌ في كأسِ ماءٍ آسن.

لن يكونَ الشِّعرُ
حديقةً عشبيّةً ترعى فيها
غزلانُ القصائدِ
دونَ أن تتعرّضَ لخطرِ القنص
هذا ما تيقّنتُهُ من الرصاصة
التي وجدتُها بين دفّتَي ديوانِ
(وعلٌ في الغابة)
لرياض الصالح الحسين.

لكن
ربّما يكونُ الشِّعرُ
تعويضاً عادلاً عن الخراب
الذي سيحلّ بالأرض
حينما يموتُ الشعراءُ جميعاً
رأيتهُ ببكاءِ عاشقٍ
حينما أهالوا التراب على قبري..

الصّورةُ

الصورةُ
دَينٌ لنا بعنقِ الذاكرةِ
لنقابلَ الحياةَ كلّ صباحٍ
أصحّاء
بلا أمراضِ حنينٍ مُزمنة
بلا اسودادٍ تحتَ الجفنَينِ.

الصورةُ
ضروريّةٌ تماماً كالوردِ
على قبرِ القتيل
لتُحيطَ كإكسسوارٍ لازمٍ
بالإطارِ الفارغِ لحياتِنا
لنعدمَ بها زهرَ الغياب
ورقةً

ورقة

بمقصلةِ شغفٍ مهجور

لنثبتَ للهِجرانِ أنّنا لم نفترق

يدي لاتزالُ على كتفكَ

ضحكتكَ تركضُ كمهرٍ برّيٍّ

وتتسلّقُ جَسدي

فتصنعُ غابةً مطيرة

من انحناءةِ عُنقي شمالكَ

كان لا بدَّ من الصورةِ

لننظرَ إليها خلسةً

كلّما حلَّ الحزنُ ضيفاً

في غربتِنا الطويلة

لنشاكسَ بها فرحاً قديماً

لايزالُ يمدُّ لسانَه خارجَ الصورة

كلّما تُهنا في سراديبِ الزنبقِ المنسيّ

كان لا بُدَّ من الصورةِ

لنرفعَ الدمعَ المالحَ

عن رصيفِ البحر

ليتدحرجَ كلؤلؤٍ أزرقَ

بينَ قلبي وقلبكَ

كان لا بُدَّ من الصورة

لنحوّلَ الجُرحَ الطويلَ
إلى مغارةِ ملحٍ
أو قصيدةٍ
أو مقبرةٍ لجنودٍ ماتوا في الحرب.

الجرحُ كما لو كانَ خُردة

لا تحاول
الجُرحُ لا يمكنُ
أن يتحوّلَ إلى وردةٍ
أو حتّى إلى خُردةٍ مُنتهيةِ الصلاحيّة
الجرحُ هائلٌ
كمدينةٍ من الملحِ
الجُرحُ معدنٌ قاسٍ
كدرابزينٍ صدئٍ
يمنعُ البحرَ من ملامسةِ الهاوية
الجرحُ خالدٌ
كعُشبةِ جلجامش
وأنا
صغيرةٌ جدّاً
على الملحِ والصدأ والخلود

على ذراعي كدماتٌ هائلة
فيما كنتُ أنسجُ غزلَ الانتظار
مع (بينلوب) في (إيثاكا) البعيدة
في قلبي ندوبُ المُدن
التي تركتُها
المُدنُ التي
تتبدّدُ كسكّرٍ هشّ
في ماءِ البرابرةِ الجدد
الجُرحُ قوسٌ
ولا سهامَ بينَ يديّ
لأطلقها على اسمك
لا نارَ بينَ يديّ
لأحرقَ شُجيرةَ الكلام
وأتدفّأ بلهيبِها
في الأمسياتِ الطويلة..

لا قلبَ لكَ في المُدن الغريبة

تمشي طويلاً
وتعرفُ أنْ لا قلبَ لكَ
في المُدنِ الغريبة
الشوارعُ النظيفةُ
الأرصفةُ المُحاطةُ بأصصِ الزّهور
نكهةُ السجائرِ الغريبة
المحطّاتُ المُزدحمةُ دائماً
كلُّ ما فيها يُعيدُ قلبكَ إلى الوراء
ليصطادَكَ مِنجلُ الحنين
بذكرى نبتةٍ خضراء
تركتَها تحتَ درَجِ بيتكَ القديم
تمشي طويلاً
وكأيِّ غريبٍ يؤسّسُ مدينةً
تسرجُ قلبكَ بالمعاني الجديدة

بالغموضِ الكائنِ في بشرةِ الغرباء
بإخفاءِ بحَّةِ الوجعِ في لكنتكَ الجديدة
لكن لا شيءَ
لا شيءَ يُدمي خيالكَ
كما يفعلُ شالُ أمّكَ
كلّما وقع عن ظهر ذاكرتكَ
وهتفَ بكَ:
لن يكون لكَ
قلب
لن يكونَ لكَ
قلبٌ في المُدنِ الغريبة..

حينما يكونُ الحبُّ

حينما أحبُّ
يُمكنني أنَ أكتبَ شعراً جميلاً
وأهزمَ بهِ (سافو)
شاعرةَ اليونانِ الأولى
ويتساقط من قدمي
نبيذٌ وخلاخيلُ فرحٍ
لا أسرفُ في غِوايةِ المجازِ
فلا تغويني نياشينُ اللّغةِ
لأبتكرَ لكَ شعراً يصلحُ
لجائزةِ (نوبل) للآداب
فقط أسردُ، كعصفورٍ صغيرٍ، الكلامَ
الكلامَ البسيط
كأن أقولَ لكَ: «أكرهُكَ»
فتضحكُ للحُبِّ
المُندلقِ منها كجرارِ ماء

ما هكذا تقالُ أكرهكَ
وتردُّ ضاحكاً:
«أكرهكَ هذه.. تعني أحبّك جداً»!
أو أحدّثُك عن أرصفةِ حلبَ
ومشاتل الوردِ فيها
فتعرف أنّ حديقةَ زهرٍ
تفتّحت في جسدي وتطلب ماءَكَ
حينما أحبُّ
يمكنني أن أتجاوزَ
خجلاً قديماً في مورثاتي
وأصرخ لنجمةِ كلاويج ساهرةٍ
عن قُبلةٍ في الصندوق الأسود
لطائرةٍ تُخطئُ في المسافة بينَ مدينتين لا تلتقيان
إلا على سريرِ الجسد
حينما أحبُّ
أخلعُ عباءَةَ التاريخِ
تاريخِ العائلةِ
والبلادِ.. والحرب
وأرتدي قميصاً أبيضَ فضفاضاً
يُظهرُ من جسدي أكثرَ ممّا يُخفي
وأرتدي جلدَ الفراشةِ

ويمكن أن أستعيرَ
قرنَ غزالٍ
وقلبَ شاعرٍ ما
فالاستعاراتُ ملحُ الحبِّ
حينما أحبُّ
أنفخُ بقربةِ الريحِ المثقوبةِ
وأجهّزُ الغاباتِ لحريقٍ وشيكٍ
بينَ الغيمِ والقبلة.
حينما أحبُّ
ولا تنسَ ما أقولُ:
«فقط حينما أحبُّ
أركلُ كلَّ شيءٍ
كلَّ العالمِ
بقدمِي اليسرى
أتحوّلُ إلى هواءٍ
وأقضمُ رئةَ العدمِ
لأمشي إليكَ وحدَك
عبرَ الماء
عبرَ الغبار
نبيّاً
لا كتابَ لهُ سواكَ»..

خمسُ قصائدَ لحُزنٍ قديم

- 1 -

أركلُ العالمَ بقدمي
وأجلسُ تحتَ شمسِ أبريل
مُنتظرةً من يُعيدُ ركلهُ لي مرّةً أخرى
وإن لم يحدث ذلك
أركلُ قلبِي إلى الهاوية أيضاً
وأضحكُ لطائرٍ يأكلُ من جثّتي
فلا نوافذَ لعتمةِ جسدي
أنا الشّمسُ العالقةُ بمنخلِ الهجران
كلُّ النوافذِ أُغلقَت
بغبارِ الجنودِ الذاهبين إلى الحرب
وحدَها النافذةُ التي تطلُّ على الذكرى
مفتوحةٌ للشمس.

– 2 –

أُربّي الحزنَ
في أصصِ الزهورِ الفارغةِ على شرفةِ منزلِي
فالأخضرُ هجرَ منزلي
منذ آخر صرخة طفل
جائعٍ من بلادي.

– 3 –

أُوصي بأشيائِي الحبيبة
لمتحفِ الأشياءِ القديمة
لأزورَها بعدَ أعوامٍ طويلةٍ
سائحةً بشعرٍ أبيضَ وقلبٍ أخضر
أفتحُ عيني من دهشةٍ عاشت يوماً على هذه الأرض
أشيائي الحبيبةُ
تذكاراتُ اليومِ لغدٍ يكبرُ
تحتَ جلدِ الغياب
الغياب
الذي سنموتُ بحسرةِ تذكاراتهِ بعدَ عشرينَ عاماً.

– 4 –

لم أعرف أين يذهبُ الحُبّ
حينما ينتهي

كأنَّ الضباب يبتلعهُ خلف ناطحة سحابٍ
في نيويورك
لا يعودُ للأغنيات القديمة من أثرٍ سوى
صدى موهن صادر من ألة تسجيل رديئة
حتى بقايا القهوة على طاولاتِ الماضي
تُصابُ بالعفونةِ والصدأ
لن أعرفَ أين يذهبُ الحُبّ حينما ينتهي
لن يعرف أحدٌ أبداً

– 5 –
أُغني مع المطربةِ التركيّة
بلغةٍ لا أفهمُها
عن المكانِ الأوّلِ الذي وُلدت فيهِ
ومن بعيدٍ
أبعد من الأغنية
وراءَ جدرانِ حياتِي الصّاخبة
صدى حزنٍ قديم
يُشبهُ طفولتي التي نسيتُها في درج المقعدِ المدرسيّ
في الغرفةِ الطينيّةِ الصغيرةِ التي سُمِّيت
...
مدرسة..

ببطءٍ..

ببطءٍ.. ببطءٍ
تموتُ ذكرياتُنا الطازجة
الروائحُ تُنسى
القبلاتُ تذوي كفمِ ميّتٍ
حتّى العناقُ الذي بدأ كبرْكانٍ
كلُّ شيءٍ يذبلُ حينما
نتركُ الشجرةَ بلا سقاية.

ببطءٍ.. ببطءٍ
ترحلُ ذكرياتُنا إلى البعيدِ
وراءَ الحاضرِ
لتغلقَ خلفَها
باباً من حديد..

نصوص.. لـ «كوباني»

(كوباني.. ماذا صنعتِ بالذهب؟ ماذا فعلتِ بالوردة؟)[1]

«لتبقَ إيثاكا دوماً ببالكَ ـ إنّ بلوغكَ إيّاها هو غايتُكَ».

كلُّ بلدٍ عابرٌ، وحدكِ يا (كوباني) الغايةُ. بمعنىً مجازيّ موازٍ لعبارة (كفافيس)، يردّد نازحو (كوباني)، كلّ صباحٍ، كصلاةٍ مُقدّسة، من خيامهم ومن البيوت التي استأجرُوها، معاني قصيدة كفافيس من دون انتباهٍ، مستبدلين بإيثاكا كوباني. فكلّ حزنٍ يدلُّ على سابقه، يا (كوباني).

ألتقطُ حزنكَ، حزني وحزنَ هذي المدنِ بفمي، وأطيرُ به إلى السماء السابعةِ. أسقطُ. أسقطُ في أسفلِ الهاوية ونتحطّمُ. فكلُّ هجرةٍ اغترابٌ خارجَ الجسدِ الأوّل. والروحُ التي تركناها وراءَنا على دربِ الجلجلةِ الطويلِ، بينَ سهولِ (كوباني) وبيوتِنا وحقولِنا وذكرياتِنا المُثخنةِ بالحنين الذي لم يجفّ منذُ اليومِ الأوّلِ لنزوحنا، مذ خطَونا بأقدامِنا وخوفِنا خارجَ الحدودِ وصولاً إلى تركيا... (إيثاكا) بقيَتْ معَنا. حملناها في الحقائب الصغيرةِ السريعةِ التي جهّزناها لنزوحٍ قصيرٍ، ظننّا أننا سرعانَ ما سنعودُ منهُ إلى مدينتنا. كنّا واثقينَ من

1- «ماذا صنعتِ بالذهب؟ ماذا فعلتِ بالوردة؟»، اقتباس من أنسي الحاج.

العودة. لا أحدَ يتركُ (كوباني). لا أحدَ يهجرُ (كوباني). كانت العودةُ إلى (كوباني) حتميّةً وقريبة، حتّى عندما كانت أسماؤُنا تدخلُ قائمةَ المساعداتِ ولوائحِ اللاجئين كغيرنا من السوريين الذين سبقونا إلى دربِ الجلجلة القاسي هذا. لم نيئَس من العودةِ الوشيكةِ. لكنّ الألمَ مع كلِّ يومٍ من النزوحِ كان يطولُ ويطولُ، كالحدودِ المُترامية بينَنا وبينَ مدينتنا.

«لقد أعطتكَ إيثاكا الرحلةَ الرائعة/ فلولاها ما كنتَ لتزمعَ على السفر/ لكن لم يعد لديها الآن ما تعطيك».

من خلفِ السياجِ الحدوديّ يجلسُ كلَّ صباح مئاتٌ من سكّانِ (كوباني) يتأمّلون بيوتَهم ومدينتَهم وهي تُقصَفُ، ويتأمّلونَ الدخانَ يتصاعدُ عالياً عالياً حتى يصلَ إلى قلبِ الله. شيءٌ ما من أرواحِهم يحترقُ مع كلِّ قذيفةٍ وقصفٍ من طيرانِ التحالفِ للمدينة. لا أحدَ ينتبهُ لكلّ هذا الألمِ المزروعِ كالألغامِ على المنطقةِ الحدوديّةِ بينَ تركيا وسوريا. فالألمُ لغمٌ لا يُرى. الألمُ لغمٌ يشدُّ بقلوبِ نازحي (كوباني) إلى مدينتهم التي تُدمّر أمامَهم. فأيّ رحلةٍ رائعةٍ منحتها (كوباني) لسكّانها! أيّ سفر يا كفافيس كانوا ينتظرونهُ خارجَ حدودِ كوبانيّتهم! اليومَ، لم يعد لدى (كوباني) ما تعطيهِ إلى سكّانِها سوى الحسرةِ، يشاهدونها كالغرباءِ من خلفِ السياجِ الحدوديّ. لا أقسى من أن يكونَ المرءُ شاهداً حيّاً على خرابِ مدينته. أيّتها الآلهةُ العمياءُ، كالطائراتِ التي تقصفُ مدينتنا كي تحميها. أيُّ سخريةٍ تنتهكُ السماء! كلّ شيءٍ أعمى يا الله. وحدهُ الألم يرى كأنّه مقبرة.

«لا يوجد جمالٌ يدوم على وجه الأرض إلى الأبد».

من كتب تلك العبارة أكان يقصدكِ يا (كوباني)، أم يقصدنا نحن الذين خبّأناكِ في قلوبنا كحرزٍ ثمين في تنقّلاتنا وأسفارنا؟! كان تَلُّكِ الصغير «مَشْتَه نُور»[1] يحرس ليلنا الطويل من الوجع. وكانت غابتكِ الخضراء لا تكفّ يوماً عن قول كلمة «أحبّك» مع كلّ شهيقٍ لعاشق من عشّاقها. إنها شجرة الأمنيات التي علّقنا عليها تعاويذنا ونذورنا السرّيّة، وحملنا جذورها في نزوحنا. أغنيات مجو كندش، صوت عود رشيد صوفي، وتأوّهاتهما، يصدحان بحنجرة كلّ عجوزٍ يتنهّد قرب البوابة الحدودية في انتظار العودة، العودة إليكِ يا (كوباني). كلّ ما فيكِ من جمال لا يزال يتنفس بأرواحنا. أُصص زهور نساء (كوباني) تنمو في أجسادنا باحثةً عن يدٍ من (كوباني) تحمل إليها الماء، ماء العودة. آه يا (كوباني)! لا يوجد جمال يدوم على وجه الأرض إلى الأبد. حتى جمالكِ يغزوه الخراب.

«ماذا صنعتِ بالذهب؟ ماذا فعلتِ بالوردة؟»

نحن نفترش أرصفة الغربة ونعيش مرارة أن يكون المرء لاجئاً ونازحاً، سقفه الأعلى هو الخيمة. نسألكِ يا أمّنا يا (كوباني)، يا إيثاكا العمر: ماذا صنعتِ بالذهب، ذهبِ ذاكرتنا، ذهبِ حقول قمحنا، ذهب حنيننا، وماذا فعلتِ بالوردة، وردة خريف أعمارنا التي حلمنا أنّها ستكون بين ذراعيكِ تحت حراسة «مشته نور»؟ ماذا فعلتِ بأوجاعنا التي نرسلها إليكِ كلّ صباحٍ مع الحمام الرماديّ من الحدود التركية؟ ماذا فعلتِ بنا يا أمّنا، يا كوباني؟!

1- مشته نور: تلة تطلّ على مدينة (كوباني) السورية.

حينَ نرجمُ قلوبنا بحجارةِ (كوباني)

(إلى آرين ميركان)

البندقيةُ على كتفكِ الجميلِ قصيدةُ نثرٍ مُصاغة بمجازِ
الدهشة
رغمَ أني لم أحبَّ السلاحَ يوماً يا صديقةَ الشمسِ
فالبندقيةُ كانت وراءَ تحطيمِ كلّ مزهرياتِ الوردِ
وأحواضِ الزهرِ التي أحببتها في هذا العالمِ اليباب
لكنّ بندقيتَك أرغمتِ العالمَ أن يستديرَ نحوَ الشمالِ
نحوَ شمالِنا النائي المهجور
نحوَ (مشته نور) وهو يعانقُ ستَّ حمائمَ بيضاءَ أطلقْتُها من قلبي
باتّجاهِ رجلٍ سأحبّهُ يوماً
باتّجاهِ طفلةٍ تركْتِها وراءَك لذكرى اسمك المضاءِ بدمك.

أتصدّقين؟!
لم يرجم أحدٌ قلبَه بالحجارةِ كما فعلنا ونحن نخرجُ من
(كوباني)

كلّ حجرٍ تعثّرنا بهِ في حقولِ الألغامِ على الحدود
التركيّة
حملناهُ بأيدينا ورجمنا به أرواحنا
فلا أحدَ منّا
تمكّنَ من تحمّل أوجاعِ الذاكرةِ، في ذلك النزوحِ الطويل.

البيوتُ التي بقيت مفتوحةَ الأبوابِ
كانت تنادينا كيفَ تركنا القفلَ بلا مفتاح
لو كنّا نعلمُ أنّ هجرتَنا طويلةٌ لعلّقنا مفاتيحَ بيوتنا
بجدائلِ شعرِك الأسودِ قُبيل الرحيلِ الكبيرِ
أحواض الورد الذي لم نأتمن جانبه يوماً
الوردُ الذي كان يقتلنا حينما يمتدّ من يدِ حبيبٍ
قتلناه بهجراننا له يا آرين
ولم نترك لمن سيقتفي آثارنا
من دليل، سوى بكائنا المتساقطِ من عتباتِ بيوتِنا إلى الحدود
التي قطعناها وصورتك المبتسمة
على شاشاتِ الأخبار.

نرجمُ أنفسَنا بالحنين لـ(كوباني)
بينما أقدامنا تتسوّلُ أرصفةَ هذه المدنِ الغريبة
هذه المدنِ التي لا تفقهُ الآهة بصوت (محمّد شيخو)

كيف لها أن تتخيّلَ تنهيدةَ ركبة عاشقة تنظرُ من بعيد
إلى «مشته نور» وتخاطبُ حبيبها بصوت (مجّو كندش) الحزين
لا أحدَ هنا قادرٌ على تلمّس أوجاعِ الكوبانيين
فقط نرجمُ قلوبنا
حجراً حجراً
بيتاً بيتاً
قرية قرية
ونقاتلُ مدّ أشجارِ السرو في غابة (كوباني) نحوَ صدورنا
نقطعُ أغصانَها الطويلةَ كي لا تقتلعَ مخاوفنا من صدورنا المُنهَكة
بدخانِ التتن الهشّ كرئاتنا
التتن الرخيص الذي نلفّهُ
بسجائر رديئة ونتجرّعهُ بنهمٍ لنخفّف من حرقة القلب.

يا آرين.. يا ابنة الشمس
يا حاملةَ البندقيّةِ التي أخافها
لو عرفتك في وقتٍ مضى
لربّما دعوتك إلى فنجان قهوةٍ وقصيدة شعر
وأقنعْتُك
بالغابة والحبّ والتخلّي عن السلاح
والذهاب معاً إلى بساتين (حجّ رشاد)
على طرف (كوباني) للحديث عن نساء (كوباني) وهنّ يتسوّقن
الحبّ كما اللباس من شارع التل

وعن أسماء أطفالك.. لكنّ توقيت موتك
طريقة موتك
صوغ حقّك في الموت كرمى لمدينةٍ انتمينا إليها
بالروح والجذور.

ها نحنُ يا صاحبةَ الجدائلِ المزيّنة بحنيننا
ها نحنُ
نرجمُ أرواحنا بحجارةِ الحنينِ
فاغفري لنا
لم نكن أكثرَ من أنبياءَ
بلا وصايا..

المجزرةُ تبتسم

المجزرةُ تبتسم
فصوَرُها منتشرة بكثرةٍ على صفحات الجرائد والمجلات
نشرات الأخبار ومواقع التواصل الاجتماعي
المجزرةُ هاتفها مغلق
كأيّ شخصية مشهورة
لا تردُّ على الاتصالات الكثيرة
للمجزرةِ شأنها الخاص بوضع الأرقام على قبور ضحاياها
لكن لمجزرة (كوباني) أسماء أيضاً
وليست أرقاماً فقط
تدلُّ على الضحايا
لكل ضحيةٌ اسمٌ يبتسمُ
فالمدينة صغيرة والجميع يعرفُ الجميع
لا قتيلَ فيها مجهولٌ
كلّ قتيل له أحبّة وأصدقاء

كلّ قتيل له اسمٌ يدوّن على شاهدة قبره

بيروين.. محمد.. هوشنك

كلستان.. عمر.. أفين.. نارين

مصطفى.. ريبر.. خليل.. أزدشير.. إسماعيل

وقائمة الأسماء تطول وتطول

تصلُ إلى السماء الأخيرة وتستقرّ بجناحِ غيمة وتبكي

أحمد.. فاطمة.. فتحي.. علي

وسلافا..

آه.. سلافا

الطفلة التي يصلحُ وجهها كمزهريةٍ لمجزرةِ (كوباني).

المجزرةُ تبتسم

فمن يرفعُ بعد اليوم عبء الذاكرة عنّا؟

من يلغي الفجر من صباحاتنا؟

ذلك الفجر الذي تسلّل فيه وحوش الكهوف المظلمة إلى المدينة

في تمام الساعة الخامسة صباحاً

طرقوا الأبواب

فتحوا لهم الأبواب

فأهالي (كوباني) لا يدَعون أحداً خارج بيوتهم يطلب مساعدة

فتحوا الأبواب

فابتسمت المجزرة

وافترس الموت الأسود قلبَ كلّ من فتح بابهُ
صعدوا للأعلى
فتحوا كل الأبواب المغلقة
قتلوا النائمين وتركوا أحلامهم معلّقة بخيطِ دمٍ
يتخثرون في أجسادهم
لم يستثنوا أحداً
طفلاً
امرأة
شيخاً
عاجزاً
كلّ أحد
كلّ من كان قلبه ينبضُ بالحياة قبل فجر الـ 25 من حزيران
ذبحوا الجميع بهدوءٍ
وظلّت المجزرة تبتسم وتبتسم
«لم يكن أهل (كوباني) ليغلقوا أبوابهم أمام غريبٍ يطرق الباب»
هكذا برّر الضحايا لأطفالهم قتلَهم الوحشيَّ فجر ذلك اليوم من حزيران.

للمجزرةِ ذاكرة المدينة
فمجزرة (كوباني) تحفظ رائحة ضحاياها
أغنياتِهم المُحبّبة

نوعَ السجائر التي كانوا يدخّنونها
وأصنافَ الزهور التي كانت النساء تزرعنها
في باحاتِ منازلهنّ
أسماءَ (الطبخات الكردية) التي أُعِدّت على الإفطار
عددَ المرات التي بكت فيها الطفلة الرضيعة قبيل الفجر
كلامَ الحُبّ الذي كتبتهُ العاشقة لحبيبها برسالةٍ قصيرة قبل النوم.

ليس للمجزرة أسماء وذاكرة فحسب
للمجزرة سكّينٌ حادّ يفقأ قلبكَ
ويتركك كحجر شاهدة قبر بلا اسم
أمام المقبرة
وتظلُّ المجزرةُ تبتسم وتبتسمُ
حتى تلتقط لها صورة حزينة
حزينة..
كقلبكَ القتيل..

الحبّ لا يعرفُ لوناً

– 1 –

الحُبُّ لا يعرفُ لوناً
زنجياً كُنتَ من (كينيا)
أم أبيضَ من الشمال
مُقعداً وحيداً في كرسيّكَ بمأوىً معزول
أم تسيرُ بقدمينِ في متنزّه جميل في
(حي ميتيه)
الحُبُّ لا يُفرّقُ بين أحد
مُدخّناً كنتَ
سكّيراً.. عربيداً.. ماجناً.. قوّاداً.. كاذباً
تبيعُ أمّكَ بيورو وعلبة بيرة
أم كنتَ شبيه غيمة في مخيّلةِ امرأة جميلة
الحُب سيمنحُكَ ذاتَهُ بلا سؤال
كلّما طرقتَ بابهُ ورميتَ ماكنتَ عليهِ قبلاً
الحبّ..يُعيدُكَ ماءً ويمضي.

– 2 –

العاشقُ طيرٌ وحيد

بلادٌ مهجورة متروكة كتذكار لاجئٍ غريق

ليسَ للعاشقِ حصانة

بإمكانِ الحُبّ طرده كلاجئ من أرضهِ القديمة

من منزلهِ الأول

من حديقة اللَّوز

سرير الطفولة

من أحضان المحبوب

من آثارِ الحب على جسد العاشقة

ومن ذكرى رائحة تنمو كالعشبِ على سرير الغد

العاشقُ الذي هو طيرٌ وحيد

يضعُ عشَّهُ على شجرة الأمنيات في العراء

ليسرقَ منهُ الغرباء

غدَ حلمِه

حاضرَ دهشتِه

وقبلةَ الحُبّ الوحيدة التي امتلكها

العاشقُ طيرٌ وحيدٌ

وحيد

كبلادٍ تذبلُ وحيدةً في الحرب..

ثمانيةٌ وعشرون جرحاً

أقلَّ من صغيرةٍ

أقلَّ من صغيرةٍ كنتُ
حينما
عرفتُ الحياةَ كجُرحٍ
لم أنظر مرّةً إلى هويّتي الشخصيّة
لم أتأمّل وجهي في المرايا المُمتدّة
على طولِ النهرِ
كلُّ جرحٍ دلّني على عمري.

ستّةُ جروحٍ صغيرة
دوّنْتُها على الطريقِ الترابيّ
بينَ بيتِ جدّي والمدرسة المُؤلّفة
من غرفةٍ ونافذةٍ تطلُّ
على عائلتِي البعيدةِ في حلب.

عشرونَ جرحاً دوّنتها
ببكائي المُتساقط
على طريقِ حلب
للقريةِ البعيدةِ حيثُ قبر أبي.

ثمانيةٌ وعشرون جرحاً
دوّنتها ضاحكةً
على الهواء
على لوحةٍ لـ(خوان ميرو)
وجبينكَ في المدنِ البعيدة
فقط
جُرحٌ واحدٌ لا أدوّنهُ
إنّما أخبّئهُ كحرزٍ لموتي القادم:
جُرحُ الشِّعرِ الخالد..

تقفُ وحيداً

تقفُ وحيداً
لا أحدَ يسندكَ من السقوط
والهاويةُ امرأةٌ شبقةٌ تفتحُ ساقيها لكَ
تبتلعُ حياتَك المُضنية وآثارَ الحُبّ على جسدكَ
لا شيءَ في الأعلى
أكثرُ من عواءِ الريحِ قُربَ أقفال الماضي
تقفُ وحيداً
تطلُّ بحزنكَ على المتوسّط
لا أحدَ يسندكَ من الغرق
المتوسطُ الذي لم يحتضن سُمرة روحكَ الحزينة تحتَ شمسهِ
تقفُ وحيداً
وحيداً كما عرفتَ الحياةَ مرّة ونسيتها
وتطيرُ
تطيرُ صوبَ الهاوية
كنبتةِ خشخاشٍ تُفكّرُ بإنجابِ أطفالٍ
من مطرٍ عابر..

أحَبَّني

أحَبَّني
كما لو كنتُ الصندوقَ الأسود لطائرةِ حياته
كما لو كنت لوناً أزرقَ يغفو بحلمهِ
لكنّي الرماديُّ الذي لم يصادق إلا الظلَّ
لم أحلّق يوماً بحديقة بيتهِ
كنتُ قصيدةً بقدمين تسيران فوقَ تراب قلبهِ.

أحبّني
كما لو كنتُ آخرَ امرأةٍ
تحيا عاريةً على يابسة حياته
الرجلُ الوحيدُ
الرجلُ الباهتُ كصندوقِ عرسِ أمي الخشبيّ القديم
الرجلُ الذي حملَ لي بيديهِ قصيدةَ حبّ
و 7 مدنٍ مُؤقتةٍ
الرجلُ الذي كانَ يُغنّي لي كلَّ ليلة

ويعدُّ الخرافَ الصغيرةَ حتّى أنامَ
أحبّني بصدقِ الأنبياءِ وهو يُخاطبُ مُعجزةً لن تحدث:
«ماذا لو وُجِدَ منكِ 7 مليارات امرأةٍ؟!»
وقبل أن أضعَ يدي على فمِ الجواب
كانَ قطارُ الموتِ يأخذهُ إلى المحطة الأخيرة.

اثنا عَشرَ غزالاً على أسرَّةِ بائعاتِ الهوى

بائعاتُ الهوى فقط
يُجِدنَ الحديثَ عن الألمِ كما نعيشهُ تماماً
لا يخجلنَ من نعتهِ علناً
بأقبحِ الصفاتِ التي تليقُ بهِ
يُعرّينَ «عانتَهُ» في سوقِ الخضارِ تحتَ مرأى الجميع
حتّى الدجاجاتُ المعروضةُ في الأقفاصِ يشاهدنهُ ذليلاً
يضاجعنَهُ كما لو كانَ رجلاً عابراً ويحفظنَ أدقَّ تفاصيلِهِ
الألمُ الذي يعضّنا ونعضّهُ سرّاً، نلوكهُ مراراً
كما نفعلُ بقطعةِ لحمٍ قاسيةٍ، يلوي ذراعَنا كما لو كانت الحياة
حلبةَ مصارعةٍ تجري بـ(لاس دي فينتاس) في إسبانيا
فيكسرُ ضلعَنا السادسَ بعدَ أن يمدَّ رداءَه الأحمرَ كَـ(الماتادور)
هازئاً بهشاشتنا البشريَّةِ المعروضةِ كإعلانٍ طرقيٍّ سيِّئ
يخمشُ بأظافرهِ غيرِ المُقلّمةِ وجهَنا الغضَّ كصبيٍّ أزعرَ من (حيّ الشعار) في حلبَ

يشدُّ شعرَنا الطويلَ
يلفّهُ بيديهِ المُتّسختين كيدَي منظّف مداخن عجوز
ويبصقُ في فمنا الذي لم يتلوّث يوماً سوى بلعابِ الحبِّ
ويتركنا نغسلُ أنفسَنا من رذائلهِ حتّى موعدٍ آخر.

نضعُ العامودَ السابعَ لأكروبول الألم:
(القلبَ) تحتَ أكثرِ أحذيتنا خشونةً واتّساخاً
نضعهُ هناك ونسحقهُ كما لو أنّهُ خرقةُ قماشٍ بالية نظّف بها
متسوّلٌ أنفَهُ أو بقايا سائلِه المنويّ مع بائعة هوىً رخيصة
نضعُ (القلبَ) تحتَ الحذاء
ونمرّ فوقَ جثّتهُ مراراً وتكراراً كثورٍ معصوبِ العينين
نحوّلُهُ إلى غبارِ ذهبٍ
إلى قصائدَ
إلى أغنياتٍ
إلى تحفٍ فنيّة
إلى مقطوعاتٍ مُوسيقيّة، إلى قُبلاتِ حُبّ، أو تذاكر سينما
ونوزّعهُ على هذا العالمِ الوسخ
نتخلّصُ منهُ كما نتخلّص
من لطخةِ شرفٍ قديمة عالقة بشجرةِ العائلةِ
ليغدو عاراً جماعيّاً
فنبتسمُ مُطمئنّين.

أينما ذهبنا
نأخذهُ معنا
في الشوارعِ والحافلاتِ ومحطّاتِ المترو
والسوبرماركت
والنوادي الليليّة وسهراتِ الأصدقاء
وحفلاتِ الزواج ومعارضِ الكتب
وإلى عروضِ الأفلامِ السينمائيّة
ومواعيدِ الحبّ
إلى زيارةِ أمّهاتنا
إلى قبورِ أحبّتنا
إلى العمل
إلى المقهى
وإلى سريرِ الحبّ.

نتأبّطُ ذراعيهِ الكبيرتين ونمدّهُ بمديةٍ حادّةٍ ليعيثَ فساداً بحيوات الآخرين
كما فعل بحياتنا
يكسرُ ظهر الجميع ويُدلي قدميه من أعلى أعناقِهم ويضحك
بفمٍ يملؤهُ وحلُ الخسارات
يضحكُ ويصرخ:
ها أنذا يا أولادَ الحياة

ها أنذا
أنامُ مع بائعات الهوى على السريرِ ذاتِه الذي
ينجبُنَكم عليهِ كلّ مرة.

يتبوّلُ كسكّير على جراحنا القديمة
فلا نعودُ قادرين على الإصغاءِ لصوت (لويس أرمسترونغ)
وهو يغنّي
(What a wonderful world)
بل نفكّرُ بالديدان التي تأكلُ كلَّ يومٍ
قطعةً منا
قطعةً من قلبنا (أكروبول الألم العظيم)
نُسقط حصونَنا تحتَ وقعِ ضرباتِ إزميله فيما
يمتدّ بجيوش ديدانه داخل أجسادنا
يبني خلاياهُ في كلّ حيٍّ من الأحياء التي نسكنها
يختفي صوت (أرمسترونغ) ونكتشفُ أنّنا فقَدنا صوتَنا..
ننبحُ ككلابٍ موثوقةٍ بجنازيرَ ونعوي
(العالمُ ليس رائعاً.. العالم ليس رائعاً)
إنّهُ عالمٌ مليءٌ بالجثثِ
بالتوابيتِ
باللصوصِ
بالطُّغاةِ

بالأنقاضِ
بالمعتقلاتِ
بالأوبئة
بالحروب
بالأسلحةِ
بمهرّبي المخدّرات
بالتافهين الذين يسرقونَ حصّتنا من السعادة.

عالمٌ متّسخٌ
يضعُ غزالةَ الألمِ فوقَ أسرّة بائعات الهوى
اللواتي ننامُ بأحضانهنّ حينما يبصقنَ العالمَ خارج أرحام أمّهاتنا
وننجبُ منهنَّ اثني عَشَرَ غزالاً حزيناً
لنسند أكروبول الألم الشاهق للبلاد التي منحَتنا أسماءنا الحزينة..

اِحذروا الهواءَ في الغوطةِ الشرقيّة

في الغوطةِ الشرقيّة
يُقدّمُ الله استقالتَهُ
لموتٍ بربريٍّ يحصدُ
رئاتٍ نائمةً
بينَ أشجارِ التوتِ الشاميّ
وحكاياتِ أمّهاتٍ لم تكتمل
عن الغولِ والأطفالِ المُشاكسين.

في الغوطةِ الشرقيّة
يتسلّقُ غازُ (السارين) فجراً
الهواءَ
الجدرانَ
الأشجارَ
وجوهَ الأطفالِ

أحضانَ الأمهاتِ
ويمزّقُ صمتَ الصباحِ
بحشرجةِ طفلةٍ: أنا حيّ.

في الغوطةِ الشرقيّةِ
تسقطُ العصافيرُ كطائراتٍ
أُصيبت بمحركِها
فتتهاوى إلى المقبرةِ بنصفِ ريشها
وشهيقِها الأخير.

في الغوطةِ الشرقيّةِ
تخجلُ الشمسُ من الشروق
أمامَ صرخاتِ الأطفالِ من سمائهم البعيدة:
احذروا الهواء!
احذروا الهواء!..

الحبُّ يـأكلُ من قلبي

منذُ ابتسمتُ لهُ أوّلَ مرّة
كخادمةٍ تعملُ في تنظيفِ المنازلِ
بيديَّ الوسختينِ ووجهي الذي تَفوحُ منهُ رائحةُ الكلور
والحبُّ يأكلُ بنهمٍ من قلبي
كفتىً أزعرَ يُشاهدُ فيلمَ بورنو أوّل مرّة
منذُ كنتُ طفلةً قرويّةً
آكلُ رغوةَ الحليبِ الطازجِ
في البريّة بصحبةِ جدّتي
فيما الخِرافُ الصغيرةُ تأكلُ العشبَ
كانَ الحبُّ خروفاً صغيراً يأكلُ من قلبِي
تحتَ نظرِ اللّه والخرافِ وجدّتي
ولم يردعهُ أحدٌ
وأنا.. لم أكن غانيةً حزينةً
تجيدُ مهنةَ إغلاقِ البابِ ساعةَ الضرورةِ.

في الطريقِ للمدرسةِ الابتدائيّة
في الحيِّ الشعبيِّ القديمِ
أمامَ محلِ بائعِ الحلوياتِ في (الشيخ مقصود)
في الشرفةِ المُجاورةِ تحتَ تلصّصِ عيونِ جارنا الشابّ
والحبُّ يأكلُ من قلبي
كما يأكلُ أرنبٌ حقلَ خسٍّ طازج.

في العملِ وأمامي الأوراقُ الصفراءُ
التي تنتظرُ توقيعاً وختماً من الحبرِ الأزرقِ
تحتَ وقعِ روتينِ العملِ الوظيفيّ
واعتياديّةِ أصواتِ القذائفِ المُنهالةِ على المدينة
والحبُّ يأكلُ من قلبي
كما تأكلُ الدوائرُ الرسميّةُ يفاعةَ الشباب
وحماستَهم.

في البيتِ
وأنا أُحضِّرُ كوبَ نسكافيه بالحليب
وأنا أُصغي لأغنية (يانيس كوتسيراس)
(يجبُ أن لا أحبَّ ثانيةً)
وأنا أكتبُ نثراً عن الكراهيّة
وأغلقُ الموبايل بوجه من يُحبّني

وأنا أقرأُ روايةَ (الحبّ في زمن الكوليرا) للمرّةِ الرابعة
والحبُّ يأكلُ من قلبي
كما أكلَ سنوات (فلورينتينو أريثا) في الانتظار.

تحتَ عجلاتِ السيارةِ السوداءِ الكبيرة
التي رَميتُ نفسي أمامَها
وعلى سريرِ المشفى
وأنبوبُ السيروم مُعلّقٌ فوقَ رأسي
والحبُّ يأكلُ من قلبي
كممرّضٍ يتناول وجبةَ طعامهِ في غرفةِ العنايةِ المُشدّدة
لكن
حينما أذهبُ يوماً
ليأخذَ الحانوتيُّ العجوزُ
قياساتِ جسدي للتابوتِ المُهيب
أعرفُ.. أعرفُ جيداً
أنّ الحبَّ سيكونُ قد أكلَ قلبي كلّهُ
ولن يبقى شيءٌ منهُ للموت
وهو ما سيجعلني أبتسمُ بلؤمٍ كبيرٍ في قبري..

بيوضُ أسماكِ الرنجة

بيوضُ أسماكِ «الرنجة» الراقدةِ بقاعِ البحر
أكثرُ سعادة منّا
لا ترهقُ أذنها بالاستماعِ كلّ ليلةٍ
لموسيقا الدانوب الأزرق
تُصغي لموجِ البحرِ وتدركُ
أنّهُ حينما تأتي العاصفةُ لا شيءَ يُوقفُها
فيما نحاربُها بكلتا يدَينا
ونخرجُ منها بخدوشٍ طوليةٍ في القلب
لا تتعلمُ عدّةَ لغاتٍ لتحاورَ بها العالم
بالصمتِ تشرحُ للبحر
أن يكفَّ عن ملاحقةِ غدها
بيوضُ أسماكِ الرنجة
أكثرُ سعادة منّا
وهو بالضبط
ما يجعل من هذا العالم
حزناً أزرقَ راقداً ككلبٍ عجوزٍ تحتَ شمسِ البحر..

العزلة..

لا أحد يقرأُ الشِّعر صباحاً
الطائر يغادر عشّهُ لالتقاطِ صورة فوتوغرافية
مع أسلاك الحدود الشائكة
العاشق يضعُ رأسهُ على صدأ مقعد المحطة
ويفكرُ بيدِ حبيبته التي بقيت منسيّة في جيبهِ
الجنديّ يملأ المدينة بغبارِ حذائه العسكري
فيما الشِّعر يصعد معي الدرج الكهربائي للعزلةِ..
مبتسماً..

صدر من سلسلة «**شهادات سورية**»:

بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس:

1. موزاييك الحصار، عبد الوهاب عزّاوي.
2. إلى ابنتي، هنادي زحلوط.
3. بين الإله المفقود والجسد المستعاد، نبراس شحيّد.
4. كَمَن يشهد موته، محمد ديبو.
5. حكايات من هذا الزمن، دلير يوسف.
6. لم أتمدد يوماً على سكة قطار، أحمد باشا.
7. مزهرية من مجزرة، مصطفى تاج الدين الموسى.
8. غرفة تطل على الحرب، إيديت بوفييه.
9. إذا قفزت عن السياج ولم أصب بأذى، عمرو كيلاني.
10. أرض مائدة، ضحى حسن.
11. لم تنته الحكاية بعد، رؤى الإبراهيمي.
12. إكثار القليل، دارا عبد الله.

بدعم من المنظمة الأورو ـ متوسطية لدعم المدافعين عن حقوق الإنسان:

13. رسائل من سورية، وجدان ناصيف.
14. يوميات وقصائد، علي جازو.
15. انسَ دمشق، عمر يوسف سليمان.

بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس:

16. ما تبقّى من حياة، سهى زكريا.
17. لا تغمض عينيك!، د. حسّان عبّاس.
18. الدرب مسامير، منار سهران شلهوب.
19. قنديل أم هاشم المفقود، عدي الزعبي.
20. الموت كما لو كان خردة، وداد نبي.